

زَهْرُ الْجَبَلِ

لِلْكَاتِبِ جِيُوفَانِي دُبِّي نَاقًا
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ لُطْفِي جَمْعَةً

أردت يوما أن أصعد في جبل المنظر
الجميل فهداني بمض المارفين إلى دليل
ياخذ بيدي أو أقتني أثره إذا بلغنا جهة
لا يأمن فيها السائر بخاطر الوحدة. وكان
الدليل شيخا باع المقد السابع من عمره
وقد ترك كل حول في صفحة جبينه

سطرأ ، كما سلب كل هم من هموم الحياة من
عمره سطرأ .

وكان كثر اللحية مهيب المنظر حديد البصر
كأنه من جوارح الطير، مهول الحلقة قليل الكلام،
وكان اسمه جيوفاني وقد علمت أنه قضى أربعين عاماً
يدل السائحين في جبال الألب إلى أن بلغ من الكبر
عتياً وأمسى عاجزاً عن تسلق شوامخ الجبال المتممة
بالجليد طول العام ففضل العزلة في تلك القرية البعيدة
في ظلالها أيامه الأخيرة .

ثم صار صامتا وهو يحبس الأرض قبل أن
يطأها بهراوة مديية وأنا أتبع له من ظله ، فإذا عبر
قناة عبرتها ، وإذا اخترق غابة صرقت فيها ؛ وكنا كلما
أوغلنا وعلونا مصمدين فإن لنا منظر جديد تنبسط
له النفس فشهدنا حقولاً يثبت فيها النرجس النض
فيحمل النسيم إلينا عطرها علي أجنته فنكاد نشمل
من العبق . ثم بلغنا غابة سوداء تلامس أشجارها
الباسقة منكب الغمام ، وتناطح أغصانها الشائخة
عنان السماء ، ولو كانت في سهول الهند لأستعيرين
الآساد ومكن النمرور ، ولو كانت بياريس الغائنة لخلق
الفرنسيون منها « غاب بولونيا » تشرق فيه الشمس
والأقمار ، وتسرح في مجاهله الفواني والخور ، ولكنها
هنا كغيرها من غابات سويسرا لا ترى فيها إلا أنهاراً
مشمساً وليلاً مقمرأ ، ولا تملؤها إلا رائحة الأزهار
(٣)

لما بلغت قرية مورجان نزلت بفندق « رأس الجن »
وقد أطلق هذا الاسم على الفندق نسبة إلى جبل شهير
هناك في قمته صورة رأس مخيفة . وأهل القرية
يروون عنها الأخبار ويتناقلون الأساطير . أما القمة
ذاتها وهي إحدى قرى مقاطعة فاليه فهي راقدة في
حوض الوادي كأنها وديمة ثمينة في يد غادة حسناء
بحرسها أحد الجبابرة . وكان الناظر يرى عن يمينه
جبالاً آخر اسمه المنظر الجميل ؛ وما أغرب التفاوت
بين الجبلين ! فإن المنظر الجميل كان كأنه كتلة من
الزهر القاتم لكثرة ما فيه من الأشجار الخضراء
والأشجار المتنفة والأدغال القائمة . وبقدر ما كان
جبل رأس الجن حجرياً قاحلاً كان جبل المنظر
الجميل خصباً غصناً . فكأنما يرى الناظر إليهما مثال
الخير ومثال الشر قد اجتمعا معاً ، فإن جبل
المنظر الجميل تتسلقه الأبقار لترعى السكاد الذي
ينمو بغير غرس وهي تتبع في مراعاها ذكراً ضيخاً
من أفرادها قد علق صاحبه بمنقه جرساً ليسترشد
به القطيع ، وذلك الفعل المرشد لا يضل ولا يتيه في
ذهابه وجيئه وصعوده وهبوطه . أما الناظر إلى
جبل رأس الجن فما كان يستبين إلا رمزاً مخيفاً
يتمث إلى نفسه بديب الوجع ، وبقدراً كانت طريق
جبل الجن وعرة ومسالكها مخوفة بالمها لك كانت
سبل المنظر الجميل سهلة واضحة يتبينها الطفل .

نهار لتحصيل الرزق وإنبات ولدها، وما زالت المرأة تعمل وتدأب وحول يحىء وحول يذهب، حتى شب الولد وخفف عن أمه المعجوز أثقلاها، فكان يرعى الغنم وبسطاد الأرانب البرية ويحتطب ويحسن إلى تلك الأم التي قضت أيامها في تربيته . وفي يوم من الأيام خرج الفتى إلى القرية يبيع فيها صوف الخراف وخرجت الأم من الكوخ وجالت على ضفة النهر وإذا بها ترى صبية جميلة لا يستر بدنهما إلا أطمار بالية تبكي وقد سترت وجهها بكفها، كما سترت جدائل شعرها كتفها؛ وكانت بهية الطلعة رغماً من فاقها البادية وحزنها العميق . فلما أن بصرت بالمرأة مالت نحوها وجالت على مقربة منها وزاد شهيقها وعلا صوت انتحابها ، فتحركت عاطفة الحنان في قلب المرأة وسألها ما يبكيها ثم ضمها إلى صدرها فاطمأنت الفتاة وسكنت عاصفة نفسها وقالت : ليس لي أب ولا أم . وكنت أعيش مع « الراعى الصغير » يطعمنى الفديد ويسقينى الحليب ، ومنذ أمس ذهب عني وغاب ، فأخذت أبحث عنه وأناديه فلم أعر به حتى بلغت هذا المكان . فقالت لها الأم : أترى في هذا الكوخ مسكناً وبى أمّا وبولدى أخاً ؟ فبكت الفتاة ولم تخر جواباً . وكان سكوتها أفصح بيان فضمها المرأة إلى صدرها وقبلتها في جبينها وأنفستها وأدخلتها كوخها وأطعمتها من جوعها وأمنتها من خوفها وأبستها ثياباً بسيطة نظيفة وطيبت خاطرها وأعدت لها مكاناً على المائدة وصرقداً بجوار مرقدتها وفرحت بها . ولما أن عاد الولد عشيّة قالت له أمه إنه رزق في غيبته أخاً تقاسمه الخير والضرير . ففرح

ولا يسمع بجوانبها إلا خريف الماء وتغريد الأطيار . فلما أن توسطنا الغابة وصلنا إلى نهر قوى الانحدار شديد التيار ولكن ماء صاف كمين الدبك، وهو من شدة انهماره يطغى على ضفتيه كأنه ينازع اليابسة ليغمرها، فسألته عن اسم هذا النهر فقال نهر الجياز؛ ولما رأني قد ارتمت لرؤيته قال لي إنه الآن بالنسبة له في وقت فيضانه كاللؤلؤ والدب . فانه إذا انهمرت الأمطار في منتصف الربيع وذاب الجليد في جبال الجنوب حيث يوجد المنبع اندفعت أمواه هذا النهر بقوة تفوق قوة نهر الرون عند فيضانه ، وعند ذلك يطغى على الضفتين ويطمر الأرض على مسيرة نصف ميل ويحمل في طريقه كل ما يموقه من أحجار وجدوع أشجار ورم بالية وأوكار طيور جارحة وأفاع منسابة وذئاب عاوية ، وبالجملة لا يفر من طغيانه جماد ولا نبات ولا حيوان . فلما أن توسطنا الأجمة رأيت آثار أشجار ملتفة قائمة كأنها دعائم أعز من عمود المرمر وأرفع من مسلة كليوباتره وأكبر . فقلت لصاحبي الدليل : ما هذا الذي أرى : أمعبداً أقامه القدماء بتوسلون به إلى أرباب الغابة وآلهة الهواء؟ قال : كلا إنما تلك الأشجار هي بقايا كوخ عتيق له حديث يعد من أساطير الأولين . قلت . هل لك أن تجود على بهذا الحديث فأشكر فضلك . قال : إذن هيا بنا نجلس على بعد من ذلك النهر . فوقع نظرنا على هضبة خضراء قممها إليها وأخذنا مكاننا منها وبدأ الدليل حديثه قال :

كان في هذا المكان كوخ لامرأة مات زوجها وخلف لها ولداً وقطيعاً من الغنم فكانت تعمل ليل

الفتى بها وسماها « زهرة الجبل » وقضى ثلاثتهم
 المزيع الأول من الليل ساهرين ، وقد استأنست
 البنت بعد وحشتها وأعدت عليهما تنفأ من قصتها .
 وكان الفتى ينظر إلى « زهرة الجبل » نظر الفتون
 بجمالها ، ولما أصبح انصرف الولد كعادته وأخذت
 زهرة الجبل ، وقد اطأأت ، تحمل عن المجوز عبء
 حياتها المنزلية . ولما عاد الفتى أخذت تحادثه بلطف
 وهو يداعبها والأم تسر بذلك وتبيحه لأنها أملت
 أن تنشأ في قلبهما عاطفة الحب ، فتري بيتها أهلاً
 بنسلهما قبل موتها . وقد دبت في الكوخ وما حوله
 حياة جديدة بحول تلك الزهرة الشريفة . وزاد
 نشاط الفتى وصار يصيب في الصيد المرمى أكثر
 مما كان ، ويربح في بيع الحليب والصوف والحطب
 أضعاف ربحه الأول . وكان كلما ذهب إلى القرية عاد
 إلى زهرة الجبل بهدية كمنديل من حرير أو عقد من
 خرز أو خاتم من معدن ، وهي تتقبلها بفرح عظيم
 ولا تكتم عنه سرورها

وفي يوم ما انحدر الفتى إلى القرية ثم عاد وجلس
 مطرقاً كأنه يفكر في أمر شاغل فلم يداعب زهرة
 الجبل ولم يمرها التفاته الذي تعودته ، فسألته أمه عن
 سبب انشغاله ، فقال إنه رأي في القرية راعياً كان
 يعرفه منذ بضعة أعوام فلم يتعرف عليه للوهلة
 الأولى لما يبدو عليه من علامات الغنى واليسار .
 فلما سأله عن مصدر ثروته أجابه أنه تجشم أخطار
 السفر إلى الدنيا الجديدة التي تنبت أرضها ذهباً
 وتمطر لجينا ، أنى وضع الرجل فيها قدمه أو كفه
 لئى مالا ينتظره كأن أمنا الأرض تركت لكل منا

إرثاً يطالب به في تلك البلاد المعجبية ، فأقام بها بضعة
 سنين وأحرز من المال ما أحرز ، وأنه ما عاد إلا زائراً
 وسوف يرجع إلى بلاد المال والحرية فيوالى العمل
 حتى يملك نهرأ بسفائه أو منجها بدفائه . فلما رآه
 الأم مشغول البال يكاد الحسد يأكل قلبه وحب
 المال يملك نفسه نظرت إليه نظرة استعطاف ، ونظرت
 إلى زهرة الجبل وكانت صامتة ، وكأن نفسها
 الطاهرة النقية قد أشرفت على المستقبل الرهيب ،
 فقالت الأم بعد طول السكوت وقد جالت الدموع
 في عينيها : إننى يا ولدى لا أعوفك عن السفر فسافر
 إن شئت في طلب المال إن كنت لا تقنع بميشتنا .
 وكأنما لم يدرك الولد أن في هذا الكلام ما فيه من
 الاستعطاف . وكان حب المال ، والطمع في تحقيق
 آمال مبهمة قد أعياه عن حب الوالدة وأنسياء كل
 ما قاست في سبيل تربيته ، فلم يشأ أن يجيب نداءها
 وكانت تظن أنه سيقى بجانبها في شيخوختها ولكن
 محبتها وكرامتها أبثا عليها أن تلح وقد علمت بفطرتها
 وخبرتها أن الشباب إذا تعلق بأمنية لا يتحول عن
 تحقيقها . أما زهرة الجبل فقد أدركت كل معنى
 ما دار من الحديث بين الأم وولدها ولكنها
 لم تستطع الكلام بل لم تكن تدري ماذا يجب أن
 تقول ولكنها أدركت أن سعادتها فارقتها ، فأخذت
 تبكي بكاء مكنياً ولكن هذا لم يأن من جود الفتى
 ولم يحرك من عواطفه ساكتنا . فانه في اليوم التالي
 تأهب للسفر وترك المرأتين رهن الوحدة والوجل .
 سافر الفتى وبقيت الأم وزهرة الجبل وقد
 أراحتها من عناء الحياة وحات عنها عبء العمل .

واستمعى الداء ، وكانت زهرة الجبل لاتعلم أن فى الدنيا أفراداً انقطعوا لإسماف المرضى اسمهم أطباء، وإن عرفت فلم تكن تدرى أين مقرهم ولا كيف تكون دعوتهم. وكذلك الأم فألم تفتأحها بشيء ولم تشك يوماً اليها حالها . ولكن زهرة الجبل كانت تجمع بعض الأزهار والأعشاب وتستخرج خلاصتها وتقدمها للمجوز قائلة إنها رأت « الراعى الصغير » يجمعهما ويحفظها . إشتد الضعف واستمعى الداء وصامت الأم عن الكلام والغذاء فكانت تقضى يومها وليلتها راقدة لا يغمض لها جفن، وإذا نطقت فباسم ولدها أو يطلب جرعة من الماء تطفىء بها لظى نار خفية تشمل أحشائها . وكانت زهرة الجبل بجانبها لاتفارقها ولا تفتر عنها طرفة عين، تارة تمسك بيدها وطوراً تحمل رأسها فى حجرها

وفى ليلة من ليالى القدر العنيف كانت العواصف ترأر والرياح تزجر كأنها وحوش ساجنة - نهضت الأم من فراشها وضمت زهرة الجبل إلى صدرها وسألها عن ولدها ثم طلبت شربة ماء فأمرعت زهرة الجبل إلى الاناء وعادت به إلى الأم العطشى فاذا هى لاتسكلم، فدنّت منها ونهبتها فلم تنتبه، فمسحت جبينها بيدها فاذا هو بارد عليه قطرات من عرق الزرع الأخير . ولم تكن زهرة الجبل تعرف ماهو الموت فظننها نائمة وأرادت ألا تفلقها فبقيت ساهرة بجانبها ولكنها كانت تشمر بما لم تمارسه فيما مضى من الليالى : سكون شامل ووحشة لم تمتدها . كانت الأم تنام ساعة وتستيقظ أخرى . أما هذه الليلة فعندما نامت لم تستيقظ . لم تر زهرة الجبل قبل هذه

وكانت المرأة إذا ذكرت ولدها ضمت الفتاة إلى صدرها، وإذا نأقت نفسها للحديث عنه حدثتها، وإن دعاها ألم البعد إلى البكاء بكت واستبكتها . أرسل الفتى خطاباً يصف فيه أهوال رحلته وصعوبة الحياة على القادم وشدة الصدمة الأولى التى تصيب كل مهاجم . فكانت المرأة تقرأ وتبكي وتقبل الجواب حيناً وحيناً تضعه على قلبها كأنه جزء من ولدها . ثم جاء كتاب آخر ينبئها بأنه مريض وطريح الفراش، وأن أمه فى الأثرء بل فى الحياة ضعيف ويحن فيه إلى عيشته المأدبة فى الكوخ الجميل ويذكر الجلوس على ضفة النهر ويتحدث بجمال زهرة الجبل . فزاد قلق المرأة وذهب هناؤها وترعزعت أركان صبرها لبعد ولدها، ولزمها الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناها ، وملك ألم الفراق عليها قلبها وهى لا تعلم إلى أى مكان تبعث بخطابها ولا تدرى كيف تستقدمه من الدنيا الجديدة . وكانت تنخلها لجمالها عالاً آخر غير دنيوى .

ذهب الصيف وأقبل الخريف وأخذت أوراق الشجر تنساقط ذابلة، وبدأ النهار يقصر والليل يطول والغيوم تتلبد والأمطار تهطل ، وتكمل الوحدة وينقطع السبيل على المارة وتلزم الأم وزهرة الجبل الكوخ أشهراً شعرت المرأة بالخطا طقواها وامتنعت عن الغذاء وعجزت عن أهون الأعمال وقل كلامها، فكانت زهرة الجبل ترداد بها عناية كلما رأت شدة وطأة المرض عليها وتقضى الليالى ساهرة تبكي تارة وترقب وجه الراقدة طوراً .

ذهب الخريف وأقبل الشتاء فاشتد الضعف

ولن تسمع فسألته: أو لو عاد ولدها من الدنيا الجديدة
تبقى صامته !

أجاب الراعى: لو انتقلت الدنيا الجديدة بأسرها
إلى هنا فأنها لن تعود إلى حالها لأن الحياة فارقتها
فقلت له: هل هذا القراق أبدى بيني وبينها؟ فأجاب
الراعى: لا أعلم. فسكنت الزهرة، ثم طرحت نفسها
على صدر الراقدة واندفعت تبكي وتحتاج حتى بللت
وجه الراقدة وصدرها بيكاتها وجاشت بنفسها
عواطف الحب والحنان والألم والذكرى. ثم إن
الفتى أنهضها وقال لها: لا بد من دفنها. فلم تفهم. ولما
ذكر لها حالة الجسم الانسانى وسرعة فساده
وواجب الأحياء نحو أحبابهم الذين كانوا بالأمس
مثلهم امتثلت وطلبت إليه أن يخطط لها مضجعا في
الكوخ حيث رقدت، فقال لها هذا لا يكون ولا بد
أن يحفر قبرها في مكان خال، فأشارت إلى الشجرة
التي جلست في ظلها يوم لقائها بالأم على ضفة النهر
وأخذ الفتى فأسا وحفر لحداء في ظل الشجرة.
وكانت زهرة الجبل ماشية بجانب أمها تكلمها وتبكي
وليس هناك من يشهد ذلك النظر الرهيب إلا الطبيعة
والراعى الصغير، أما الطبيعة فجامدة صامته غشوم
عمياء وهي التي أوجدت، وهي التي أعدمت، وهي التي
تخلق وتميد، وأما الراعى الصغير فقد علمه شقاء
الحياة معنى ألم الموت ولادة الحياة

دفنت الأم بعد أن كفنها الراعى بأوراق الشجر
وكأنما الخلق الذى سول له أن يترك الطفلة فيما مضى
دعاه الآن إلى تركها وحيدة بعد الذى رأى، فقال
لها الفتى وهو جامد: أستودعك الله يا زهرة الجبل.

المرأة إنسانا يموت، فلم تعرف الموت. رأت أمها هذى
بالأمس راقدة وعلى وجهها علامات الألم مما ألم
بجسمها من الضعف وبقلبها من الحزن، واللبلة
رأت وجهها ساكنا هادئا كأنه امرأة صافية وعلى
شفيتها ابتسامة جميلة ولكنها خفيفة — هي ابتسامة
الفراق.

كانت زهرة الجبل منتظرة الصباح بفارغ الصبر
لعل الراقدة تنهض بعد هذا الصمت الطويل
قبيل الفجر سكنت الماصفة وجفت ما في السماء
وأطلقت ديانا سراح وحوش الريح فأفلتت إلى الوادى

كل شيء في الطبيعة تبدل وكل ساكن تحرك
إلا تلك الأم الراقدة فأنها مازالت راقدة لا تنهض.
نحرجت زهرة الجبل إلى ظاهر الكوخ املمها تجدد الفتى
عائدا من رحلته فيشاركها في إيقاظ والدته. وإنها
لكذلك وإذا بها ترى فتى أشعث أغبر قد تلغى بفرو؛
فلما دنا منها تبينته فإذا هو « الراعى الصغير » الذى
أضلته فيما مضى من أيامها فبهتت للقاءه وسرت
برؤيته وسألته عن حاله فطلب منها خبزا وحلييا
فأدخلته إلى الكوخ وقدمت إليه طعاما وشرابا،
وكان سرورها به عظيما لأنها تمكنت من رد جميل
لن أحسن إليها وصنع بها معروفًا، ثم حانت منه
التفاته فرأى المرأة راقدة. وإذ رآته ملاحظا اقشعر
وعمرته رعشة الخوف، وتبينت زهرة الجبل منه
ذلك فسألته، فلم يخف عنها أنها ميتة. وإذا كانت
لا تعرف معنى الموت أخذت تسأله فقال إنها فقدت
الحياة والحس فلن تنهض ولن تسكلم ولن تبصر

وكان الفتاة لم توجس بمدحها ، ولم تبين مغبها
ووجدتها فلم ترد على أن سألته أعائدت أنت إلى أمك ؟
فأجاب : لا أم لي ولا والد .

قالت : أين تذهب إذن ؟

أجاب : أطلب رزقا بتعب اليمين وعرق الجبين .

قالت : إبق هنا واراع الأغنام وصد الطير ريثما
يعود أخى

فقبل الفتى لا كريما ولا مجيبا سؤالها ، وإنما
تبين في المكان رزقا فلم يجد بأسا في البقاء ،
وعاشا معاً : هو يقوم بكل ما يقوم به الرجال من
أعمال الزرع والرعاية والصيد وتحويل مجرى النهر
إذا ملئ على الكوخ ، وتفويم جدرانها إذا انقضت
من شدة السيل الجارف ، وينحدر إلى القرية يبيع فيها
الحليب والصوف ، وزهرة الجبل تمد الطعام وتمسل
الثياب وتبكي على قبر أمها وقد فارقتها الوحشة
الأولى وذهب تدبير المنزل بما في نفسها .

وفي أحد أيام الربيع إذ أخذت الطيور في
التفريد وظهر زهر البنفسج في أثناء الغاب وتجدد
شباب الطبيعة ونهضت الأرض من رقدتها بمد
الشتاء - قال الراعى الصغير : ألا تأتين معي بازهرة أريك
إحدى المجائب ؟ قالت : أين ؟ قال : عند تلك الشجرة
وأشار بيده ، فانطلقا حتى تمت الفتاة وقالت له : أين
الشجرة ؟ قال هناك وأشار بيده ، وكانت تبدو عليه
سما الاضطراب والحيرة ، فسارا حتى كل قدمهما
وقالت له أين تلك الشجرة ؟ فوقف أمامها وقال لها
ألا ترين أمامك تلك الشجرة التي تظلك بفرعها
بعد أن رويتها بحبك ؟ ألا ترين أمامك للشجرة
تحمل قطوفا دانية ، وقد آن لها أن تجنى ؟ ألا ترين

تلك الشجرة التي خلقت وخلقت لك ؟

فبهت الفتاة وارتجفت وقالت له : كلا لا أرى .

ففتح الفتى ذراعيه وقال لها : أما تلك الشجرة . فلم
تشكلم ولم تتحرك ، وأخذت تنظر إلى الأفق كأنها
تنتظر من الطبيعة أن توحى إليها جوابا . فلما أريج
عليها مالت صوب الكوخ وسار خلفها الراعى الصغير
وهو لا يدري ماذا يحول في صدر زهرة الجبل .
أتدرك الحب أم لا تدركه ؟ وهل تريده رجلا لها أم
هي لا تفهم ذلك المعنى ؟

ولما بلغا الكوخ رأت زهرة الجبل شخصا
كأنها لم تره من قبل وإلى جانبه شابة مرية المنظر
وقد لبسا ثيابا غريبة ، فن حذاء يصل إلى ركبتيه ،
إلى قبعة مزدانة بطيور ميتة على رأس المرأة ، وكان
الرجل خشنا وحشى الصورة فابتدراها بقوله ولم
يسلم : أين صاحبة الكوخ ؟

فأجاب زهرة الجبل : إنها راقدة

قال : ألا توقظينها ؟

قالت : إنها لا تستيقظ من رقادها

قال : وأين هي ؟

قالت : هناك في ظل تلك الشجرة

فنظر إلي صاحبه ثم نظر إلى الراعى الصغير ،
وقد بقى هذا صامتا متشائما من هذه الوفدة الغير
المنتظرة - ثم تحول الرجل إلى زهرة الجبل وقال
لها : أأنت أنت تلك الفتاة الوحشية التي أخذت
ربة الكوخ بنتا لها منذ ثلاث سنين !

قالت : بلى

قال : ومن يكون هذا ؟ وأشار إلى الراعى

بطرف سوط كان في يده . أجابت : هو الراعى

للصغير الذي دفن أي بمد أن كفنها بأوراق الشجر وهو يقاسمني متاعب الحياة والقرية

ثم شعرت كأنها تتذكر الصوت والعينين والقامة فقالت له : ألسنت برنار أخى ؟ ثم أقبلت عليه تريد تقبيله فدفعها عنه بمنف وقال : ألا تحجلين من هذه السيدة ؟ ولكن خبريني متى كان زواجكما . فلم تجب لأنها لم تدرك سؤاله ولأنها منذ دفعها قال : ألم تذهبي إلى الكنيسة قبل مغالطة هذا الرجل . فظلت على سكوتها لأنها لم تكن تدري من كل ذلك شيئاً . قال : إذن أنتم تعيشان بنير رباط شرعى . لقد عشنا في الأرض الجديدة وعرفنا أخلاق الأمم ، فأنت وهذا الفتى في عرف الفضيلة آثمان . كيف جاز لكما أيها الفاسدان أن تدنسا قبر أمنا الطاهر بجرمكما ! . ثم أخذ يتبادل مع رفيقته ذات القبعة المريشة حديثاً بلسان لا نفهمه زهرة الجبل ولا الراعى ، ثم استمر في خطبته وقال : إن هذا الكوخ كوحننا وجئنا بنى الإقامة فيه ، فسيرا في سبيلكما وكفكما منا هذا الاحسان ، فاننا نطلق سراحكما ولا نريد أن نودعكما ظلام السجون . ثم خاطب رفيقته ، والتفت إلى المسكينين يترجم ، قال إنها تقول : يا للعار ، أفى هذا السكان الجليل ، وفي تلك القبعة الطاهرة تقترقان إثمًا كهذا ! ثم قصد قبر أمه وجئنا أمامه ، وكذلك فعلت الأمريكية ، وقال : عقوا يا أماء إذا كان هذان الأثميان قد أساءا إليك في غيبتنا ولم يرعيا لك حرمة . أما زهرة الجبل فقد بدت عليها حيرة شديدة ، وكأنها تنبهت إلى ما في هذه الأقوال والأفعال من سوء المعنى والحرمان ،

وقد رت ماسيبيها من الشقاء بالبعد عن هذا المكان . ولما نهض برنار ورفيقته وقد نظرا إليهما نظرة الكره والطراد وفاء بذلك في وجه تلك المسكينة ، هاجت زهرة الجبل ووقفت في وجهه كأنني أسد غضبي تقول له : كيف تريد أن ننصرف وأنا التي سهرت بجانب أى أشهراً وعنيت بها ليلاً ونهاراً حتى نامت النوم الأخير ، وأنا التي غرست هذا الزرع ورعيت القطيع ، وهذا الفتى هو الذى حول مجرى النهر وشاد جدار الكوخ الذى أراد أن ينقض بمد أن ماني عليه الماء ، وهو الذى حفر لأى مرقدتها في ظل تلك الشجرة ! ألا تريان أنت وهذه المرأة المبرقشة أننى قضيت ثلاث سنين في الخدمة والعمل وهذا الراعى الصغير لم يلبجأ إلى الراحة إلا خلسة لنكسب قوتنا ! لقد عدتما من أرض الأحلام بالمال فاذهبا وشيدا لكما كوخاً غير هذا واشتريا قطيعاً غير قطيعنا . فقال برنار : إياك لاشك ممتوهة ، ولو علمت أنك تنكرين الجليل ما تركت أى فريسة لخيانتك . ثم حادثته رفيقته قالت : ومن يدرينا كيف ماتت هذه الأم المسكينة وأنت بعيد عنها؟ ولم تدرك زهرة الجبل معنى هذا السؤال وإلا لافتقرت تلك الأمريكية الفاسدة القلب التي حاولت أن تنسب إليها أفعال الجرائم

أما برنار فقد أخرج من جيبه ساعة ونظر فيها وقال إن لم ننصرفا لساعتكما من كوحننا وأرضنا استنجدنا رجال الشرطة وللغضاء ليمثلوا بكما ، فقالت زهرة الجبل : نحن لا ننصرف . فسار برنار ورفيقته في سبيل القرية ودخلت زهرة الكوخ وبأشرت

والشرطي وخلفهما الراعى وقد شيعتهم الأميركية
بضحكة عالية

فلما بلغا القرية لفتت زهرة الجبل الأنظار بفرابة
زيها وما يبدو عليها من علام البداوة والجفوة
وخشونة المظهر والملبس . ولما مثلت بين يدي رئيس
الشرطة سألها عن اسميها ولقبهما وسنهما
وصناعتها ومسكنهما وهلم جرا ، فلم يجيرا جوابا .
فسأل الشرطي عن حالهما فأبدى له مارأى وسمع ، ثم
تقدمت اليه زهرة الجبل وهي مملوءة بالأمل في العدل
الانسانى ، وروت له كل ما جرى لها ، وكان أثناء ذلك
ينظر اليها تارة معجبا بحالها وبساطة نفسها وبطولتها ،
وطورا مستخفا بشأنها وساخرآ من دعواها . فلما
أن فرغت سألها عن عقود الملكية ، فلم تقدم ولم
تؤخر . فنظر اليها ثم أصدر حكمه بأن القانون
لا يطبق على (العين حقا) وانها لم « تضع يدها »
بسبب صحيح ، وأن حكمه (نهائى لا يستأنف)
ونصح لها ألا تعود إلى الكوخ اثلا يضطر إلى
حبسها . والأولى لها ولرفيقها أن يبحثا عن عمل أو
يفارقا المقاطعة لئلا يماثلهما معاملة المتشردين وإنه
يمهلها أربعاً وعشرين ساعة ! ثم أمر الشرطي
بطردها . فخرجا ، وقد غابت الشمس . أما زهرة
الجبل فانها ما كادت تخرج من غرفة الضابط وتخطو
عتبة باب (دار العدل والقانون) خارجة حتى تركت
الراعى الصغير الذي لم تدب فيه أخا ولا صديقا ينفع
وسارت على وجهها وحدها حتى خرجت من القرية ،
وما زالت تقودها قدماها رغم إرادتها حتى بلغت
مكانا يطل على الكوخ ، فلزمته كلما نظرت اليه حسنت

عملها كما دتها . ولكن الراعى كان بادی الحزن
والوجل ، ولم ينتقل من مكانه كأنه ينتظر حادثا
فاجعا . ولم يحب ظنه فانه لم يكذب يميل ميزان النهار
حتى عاد القادمان ومعهما شرطي من القرية ، فلما
دنا من الكوخ أسرع الراعى إلى زهرة الجبل
وأففى إليها بما يكون من وراء العصيان . والغريب
أن نفسه لم تحده بفكرة المقاومة التى تلتهم مع حالة
الفتاة النفسية . وفى ظني أن القليل الذي عرفه من
الحياة المدنية ترك نفسه فريسة الخوف من القانون
ورجاله الذين يمثلون العدل الوهمى . ولكن زهرة
الجبل لم تمعأ بقوله إلى أن أقبل الشرطي وطلب إليها
بلهجة الأمر أن تغادر الكوخ ، وأن تتخلى عنه
لمالكه وأنها إن امتنعت أرغمها بالقوة ، فأخذت
المسكينة تمسك إليه برواية تاريخ حياتها ، وما كان
من شأنها منذ تبنتها الأم الراقدة تحت ظل الشجرة .
وكاد الشرطي يشفق عليها لأنه لم يرحل إلى أمريكا
ولم يقف على قواعد المدنية الحديثة . فلما رآه برنار
يوشك أن يضمف حيال قصة زهرة الجبل قال له : أيها
الشرطي لست قاضيا ، قم بواجبك . فقال الشرطي
للفتاة إن رئيس الشرطة لاشك ينصرها إن هى
طرحت لديه شكواها واستنصرته فى بلواها . وكانت
زهرة الجبل كالفهدة المجروحة فخرجت من الكوخ
هائجة لم تحمل شيئا من متاعها إما شتا وإما اعتقادا
منها بأنها بلا ريب عائدة ، فتقدم برنار إلى الكوخ
وعاد بخزقتها وحلبها الموهمة ، وبينها ما كان قد
أهداه إليها وقذف بكل ذلك فى النهر . وبهذا أضاف
الأذى إلى المهانة وزاد الطين بلة . سارت الفتاة

ثم علكتها عواطف الغيظ والمقت لساكنيه، وكانت أيام الربيع الأولى قد فكت أغلال الجليد من رؤوس الجبال ودفعت بالمياه المكرة والأحجار المتناثرة في مجرى النهر إيذاناً ببداية الفيضان فعاثت زهرة الجبل أياماً في الغابة كحياتها الأولى، وكانت تقنات من عر التفاح والقطن البري على ما فيها من غضاضة وصرارة، وتروى ظمأها من ماء ذلك النهر الذي صحت عزيمتها على أن يكون فيه إطفاء لنار عاطفة الانتقام التي ولدتها نظرات الشقاء والكراهة الذي ذاقت فيه رأت. ولما مضت عليها أيام أصبحت كبعض الوحوش التي تسكن الأدغال، وتغير مظهرها كأنها لا يهدأ بالها إلا أن تنتقم من عدوها. وكانت إذا تنفس الفجر وتفرجت وجنة الأفق بأرجوان الصباح وخشيت أن تصادف برناراً ورفيقته أو غلت في الغابة وأمعنت وكأن خنوخشة أردية الدوح ومطارفه، ووسوسة أوشحة النبات وملاحقه، وأنحدار المياه وهديرها، وهبوب الرياح وصريرها، أصوات تبعث في نفس زهرة الجبل حب الانتقام. ولم يكن خفقان النسيم وهتاف الطير بسوته الرخيم، ولا تغريد الببل بالترنيم والتغنيم، لتعوق البنت المواتورة عن الانتقام. حتى إذا جن الليل وأقبل الطلام سكنت الفتاة إلى مكان منفرد في غيابة الغابة أو اختفت في أغوار الأجمة، فلما أن توسط الربيع وأقبل الفيضان نهضت زهرة الجبل خفية في السحر والطبيعة نائمة، ودنت من ضفة النهر من مكان يشرف على الكوخ وأخذت تحفر بيمض الأغصان مجرى صغيراً يشبه الغدير لتحويل ماء النهر. وما زالت تعمل في الحفر والماء يندفع بقوة

أنحدار السيل حتى انسعت الثغرة ثم أخذت تنقل حجارة كبيرة إلى وسط النهر لتكون سداً فكانت. وكاد يندفع النهر بمائه إلى حيث حفر له زهرة الجبل، وزاده أنهاراً وجود الكوخ في وهدة منخفضة. ولما أن رأت فيضان النهر فاض السرور في جوانحها وشاع الطرب في فؤادها وهنأت نفسها على أنها فازت ببغيتها، وقضت على عدوها وعدوها. وإنها كذلك وإذا الماء كالطوفان يطمر الكوخ ويغمره ويزعزع أركانه، ويغرق جذوع الأشجار ويهلك سكانه، وأخذت جدرانها التي أقامها الراعي الصغير تتداعى ثم تنقض، وعلت الأصوات بالاستغاثة ولم يلبث الكوخ أن تهدم على من فيه، وجرفته الأمواه بعد أن أغرقتهما؛ والفتاة تنظر إلى الخراب الذي صنمته يداها وهي تعتقد أنها أقامت ميزان العدل وأنها اقتضت لنفسها بمن أذلها وطردتها. وكان المسبح قد تنفس ونثر النور في الشرق ياقوتاً من أشعة الشمس، فرأت زهرة الجبل قبر أمها وقد نبشه الطوفان فبدت جيفتها على سطح الماء وقد عراها الفساد وصرمت أمامها مسرعة كأنها سفينة تمخر عباب بحر الأبدية؛ فلم تطلق الفتاة رؤيتها وظنت أنها أساءت إليها بانتهاك حرمتها فألقت بنفسها وراها واستشهدت في سبيل الذنب الذي تخيلت أنها جنته على من أحسن إليها. وهكذا ابتلع النهر أربع جثث عاشوا جميعاً على ضفتيه، وماتوا بين حافتيه، وهذا باسم القانون والعدل

فلما فرغ الدليل من حديثه كانت الشمس قد آذنت بالمغيب فعدنا إلى القرية